تشابُك الأنساق الثقافية في رواية "القاهرة الصغيرة"، للروائي: عمارة لخوص.

The Interconnection of Cultural Systems in the Novel "Alqahira saghira," by the Novelist: Amara Lahkous .

يسمينة عوادي *

جامعة الوادي (الجزائر)، naimsouf23@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2024/11/01؛ **تاريخ القبول**: 2025/01/31؛ **تاريخ النشر**: 2025/02/10

ملخص: تبحث هذه الدراسة في الأنا العربية والغيرية المُتَخَيَّلتين في النص السردي الروائي، من خلال شخصيات متعددة المشارب والجندر في رواية "القاهرة الصغيرة ،حيث تتشابك الأنساق والمصالح ، لتطرح الرواية أسئلة حرجة حول المأزق الهوياتي للأنثى والذكر ومرجعيات التمييز الجندري، وكذا سطوة الأبوية في الثقافة العربية،التي تعتبر صنما بحسب الرواية،كما عالج هذا البحث إشكالية الإسلاموفوبيا التي تصنعها بعض الفرق الدينية المتطرفة ويعممها الآخر(الغرب) في فهم صورة كل المسلمين .عرضت الدراسة نظرة الآخر لصورة الإسلام في قالب كوميدي إيطالي ساخر؛جعل الرواية تأخذ أبعادا مختلفة ؛لتُعرّي السردية الغربية حول نظرتهم للعرب والإسلام.

الكلمات المفتاح : الجندر ؛ الأنساق ؛ الأبوية ؛ إسلاموفوبيا ؛ الغربية

Abstract: This study examines the imagined Arab self and otherness in the narrative text, through characters of various backgrounds and genders in the novel " **Alqahira saghira**," where systems and interests intertwine, raising critical questions about the identity crisis of both female and male, and the references of gender discrimination, as well as the dominance of patriarchy in Arab culture, which is considered an idol according to the novel. This research also addressed the issue of Islamophobia, which is created by some extremist religious groups and generalized by the other (the West) in understanding the image of all Muslims. The study presented the other's view of the image of Islam in a satirical Italian comedic framework; this made the novel take on different dimensions, exposing the Western narrative regarding their perception of Arabs and Islam.

.**Keywords:** Gender; Systems; Patriarchy; Islamophobia; Western.

*المؤلف المرسل.

I- - تمهيد :

تعد الرواية فنا مضيافا،تتغذى على روافدة عدة،تشكل متنها،فالكتابة السردية المعاصرة تعتبر مشروعا ثقافيا وهاجسا حضاريا مشحونا بالأسئلة الحرجة التي تمر بها البشرية،إذ تحمل في طياتها سؤال القيمة ومآلات الإنسان المعاصر في ظل واقع فائق التغير والسرعة.

إن رواية القاهرة الصغيرة ،تقدم بانوراما من التجاذبات المفاهيمية المتعددة والمتصارعة وفق رؤى مختلفة.يقوم النص بتبئير لهذه المفاهيم ويرصد خلفياتها الثقافية ومضمراتها الإنسانية والإيديولوجية،في محاولة لقراءة الأنا والآخر المختلف.فهي تطرح الأسئلة الآتية:

1-الإشكالية:

بعد قراءة الرواية وتحديد العنوان طرحنا هذه الأسئلة :-كيف تم تخييل الأنا العربية المسلمة في الرواية؟ كيف تعاطت الجالية العربية ثقافيا مع الحيز الجغرافي الغيري باعتبارها شقًّا منه؟، هل تخلى العربي وهو في الفضاء الأوروبي عن الأنساق التي لقّنه إياها نسق القبيلة؟،كيف اشتغلت الرواية على النسق الأنثوي وكيف تلقى هذا الأخير الصدمة الحضارية؟

2-الذات العربية المسلمة والصدمة الحضارية المتبادلة:

يشكل حضور الإنسان العربي في رقعة جغرافية لا تنتمي لثقافته ولا توجد بينها وبينه مشتركات جينية أو ثقافية تحديا كبيرا،وفي هذا السياق تقول الرواية :"أول سؤال يطرح على المهاجر هو ما اسمك؟ إذا كان الاسم أجنبيا، فإن حاجزا / أوتوماتيكيا سيحدّد الفاصل بين «نحن» و«هم». إن الاسم يحدد موقعنا في المجتمع. إذا كان اسمك مُحَمَّد مثلا، فهذا يعني قطعا أنك لست مسيحيا أو يهوديا، وإنما مسلما. ومن المحتمل ألا تكون إيطاليا لأن والديك ليسا إيطاليين. ليس مهما أن تكون مولودا في إيطاليا، أو تكون إيطالي الجنسية، أو تجيد اللغة الإيطالية، أو... يا عزيزي مُحَمَّد في عيون الآخرين لن تكون إيطاليا مائة في المائة أبدا" (لخوص، 2022)،يطرح هذا المقطع إشكالية الوافد،الدخيل على إيطاليا كعينة من أوروبا،حيث يصطدم العربي المسلم ببوابة الاسم الذي يحمله؛مما يجعله عند الآخر(الإيطالي) مصنفا في خانة الدرجة الثانية،حيث تطرح هنا إشكالية الخصوصية الثقافية التي تجعل من صاحب الأرض يرفض (العربي) بكونه عالة على هذا الفضاء الموعود بالنسبة للوافدين. إن سؤال الأصول هنا يطرح إشكالية "العنصرية الإثنية" كخاصية بشرية،تخضع لفكرة تعالي وأفضلية الغربي عن الشرقي المختلف والمتخلف.

تدخل "صفية" نسيج المجتمع الأوروبي محاولة مدّ حوار في محاولة إيجاد مساحات إنسانية وثقافية للتعايش: | :"«أهلا، ما اسمك؟».

«صفية».

«صوفيا يا له من اسم رائع.

هل تعرفين من تشبهين؟

"من؟"،«صوفيا لورين». في الحقيقة صوفيا اسم يعجبني كثيرا، وصوفيا لورين امرأة رائعة الجمال. قصتها مدهشة فقد صارت نجمةً ساطعة في سماء السينما العالمية، بعد أن عانت من فقر مدقع. هناك دائما ألسنة السُّوء من الحساد والأوغاد مستعدة لبث سمومها في كل مكان يقولون مثلا إنها تزوجت منتجا سينمائيا كبيرا حتى يساعدها في مشوارها الفني. الحقيقة أن صوفيا لورين موهوبة ومؤمنة بالحلم، مثلي تماما" (لخوص، 2022)،تبدو"صفية-صوفيا" في هذا المقطع متوائمة مع النسق الثقافي الغربي ،فهي تستمتع بالتسمية الجديدة (صوفيا) والتي بحسب الإيطاليين،تشبه "صوفيا لورين" الجميلة،و إحدى أيقونات السينما العالمية.

إن المرونة التي تعاملت بها "صفية" مع إيطاليا وثقافتها كونها تتشارك مع "لورين" في الحلم الذي هو خاصية إنسانية،حيث أنه من دون حُلم فإن الإنسان سيتحول إلى شيء معطل ومُعدم،كما أن إجادة "صفية" للغات الأخرى جعلها أكثر قابلية لتقبل الثقافة الإيطالية الجديدة.والملاحظ أن صفية امتصت الصدمة الحضارية وأندمجت نسبيا مع ثقافة المكان.وما يدلل على هذا أنها هاجرت صوب مكان تتحقق فيها مشاريعها بحسب اعتقادها:"كانت أمنيتي أن أصير كوافيرة محترفة. ... كنت على دراية تامة بالصعوبات، إذ ليس من السهل تحقيق هذا المشروع في مصر أو في البلدان الإسلامية لكثرة المحجبات. هذا يعني أن الطلب قليل. شيئا فشيئا بدأت أقتنع أنّ المكان المناسب لتنفيذ حلمي هو باريس أو لندن أو روما أو مدريد أو نيويورك!" (لخوص، 2022) ،تبدو إيطاليا بالنسبة لهذه الشخصية عبارة عن فرصة ذهبية،حيث يتيح لها نسق التحرر من فكرة الحجاب الحصول على فرص أكثر بالاحتراف كحلاقة محترفة،ذلك أن المحجبات في الأغلب ترتبط لديهن الحلاقة والتبرج في المناسابات المحصورة والضيقة ضمن مجتمع نسوي خالص،أما أوروبا فجلُّ النساء سافرات الشعر؛إذ يتطلب هذا مظهرا لائقا وعناية يومية بالشعر والزينة.

لقد" تميزت العلاقة بين الإسلام والغرب غالباً بالتجاهل والتصادم المتبادل، على الرغم من أن القاعدة الدينية لكلا الطرفين تنطلق من جذور مشتركة. إلا أن الصراع الذي هو في الاساس ذو طبيعية سياسية مرتبطة بشبكة المصالح والقوى الدولية التي تتولى قيادة العالم المعاصر" (فرج، 2010)

3-(كريستيان مازاري أو عيسى) والصدمة المتبادلة:

تعتبر شخصية "عيسى-كريستيان مازاري "،شخصية محورية في بنية الرواية السردية،إذ يطرح النص من خلاله قضية مهمة تتمثل في مدى تأثير الشرقي على الغربي وذلك عبر سلالات خلت ،تمثلت في الجد:" كانت في جعبة جدّي قصص كثيرة قد تملأ كتبا كثيرة. فقد ولد في تونس في كنف أسرة مهاجرة تنحدر من مدينة ترابني في صقلية. عاد إلى إيطاليا في سن المراهقة. كان في سنواته الأخيرة يرغب في رؤية مسقط رأسه .... هو من علّمني الكلمات العربية التونسية الأولى: أش اسمك، شنيا احوالك وين ماشي يزي عاد، نحبك برشا" (لخوص، 2022)،تطرح الرواية ارتباط الإيطاليين بالثقافة العربية؛إذ نستشف أن هناك بُعدا متوسطيا يجمع بين شمال إفريقيا وجنوب أوروبا خاصة،فعيسى تعلم العربية التونسية من جدّه الذي ولد هناك،وافتتن بتونس وثقافتها وورّث هذا الحب للمكان واللغة العربية لحفيده الإيطالي "عيسى"الإيطالي وهو الذي يحمل هذا الاسم في إطار تكليف المخابرات الإيطالية بمهمة سرية في حي العرب.

لقد استغلت الجهات الأمنية الإيطالية براعة "كريستيان مازاري" وإتقانه العربية وإتقانه للدارجة التونسية لتعطيه اسما جديدا؛ لتوظفه لصالحها لاختراق الجالية العربية المسلمة، وذلك تحت مسمى "المصلحة العليا للبلاد" وقد ورد في هذا السياق "...بعد الثانوية، لم يفاجأ أحد من الأهل والأصدقاء باختياري كلية اللغات الشرقية. فقد درست العربية الفصحى في المدرسة الابتدائية في مزارا ديل فالو حيث أدرجت العربية في المناهج الدراسية منذ عقود. وتولدت لدي رغبة شديدة في إتقان العربية، فدخلت الجامعة في

باليرمو بعزم وحماس، كنت مُولعا بالنحو الذي كان يدوخ الطلبة والأساتذة على حدّ سواء. كنتُ من المتفوقين، مما جعل البعض يشكك في أن لغتي الأم هي الإيطالية" (لخوص، 2022)،إن ولع "عيسى" باللغة العربية جعله يتخصص في الجامعة ويعشق النحو الذي هو رياضيات اللغة،فيجب أن تعرف كيمياء تركيب الجملة حتى تستطيع تفكيكها وتجد الوظيفة الإعرابية لكل كلمة،وهذا عادة ما يتقنه المتمرسون في لغتهم الأم و هو ما امتلك ناصيته "عيسى".

لقد أحس "كريستيان مازاري" الذي تحول وفق مهمته الأمنية الجديدة إلى شخصية "عيسى" ليقول في هذا السياق :" خالجني إحساس بأنني أسكن جسد شخص آخر ،أشعر أنني غريب عن نفسي..لست هنا مكلفا بتمثيل دور في فلم ،بل بتنفيذ مهمة خطيرة" (لخوص، 2022)،بموجب هذه المهمة فإن "كريستيان مازاري" الذي هو إيطالي مسيحي تحول إلى السياق الثقافي العربي باستبدال اسمه ليصبح "عيسى"، لتختار له المخابرات الإيطالية اسما لنبي جاء بالديانة المسيحية التي يدين بها أغلب الإيطاليين.إن هذا الاختيار يعتبر حوارا عليائيا من الغرب باتجاه الغرب،حيث أن نزع اسم"يسوع" واستبداله باسم عيسى جاء لضرورات أمنية فقط،وهذا ما يدلل عليه هذا الحوار :"يجب أن نجد لك اسما عربيا يا تونسي،ماذا تقترح؟

عيسى"

"عيسى"؟!وماذا يعني؟

"اسم سيوع عند المسلمين"

"إذا ضربك أحد على خدك الأيمن،أدر له خدك الأيسر!هل تريد أن تعمل بهذه الوصية؟!" (لخوص، 2022)

يبين هذا المقطع التشابك بين ثقافتين،ممثلتين في الأنا العربية والأخرى الغربية(يسوع-عيسى-كرسيتيان)،ونلمح هنا أن نسق الدين يُرمى إلى سلة المهملات عندما يتعلق الأمر بمصلحة البلاد،فثقافة التسماح التي جاء بها نبيهم"يسوع"،لم تعد تجدي لأن طبيعة مهمته تفرض عليه أن لا يحتكم لأي مبدأ سوى تنفيذ مهمته باختراق الجالية المسلمة والبحث عن الخلية الإرهابية المفترضة.

يضعنا عيسى أمام أسئلة حرجة حول فلسفة الجسد بين الشرق والغرب:"يتحتم علي أن أغير نمط حياتي بسرعة. لو تجاسرت على النوم عاريا، سأقدم صورة خاطئة عن ميولاتي الجنسية. قد يعتبرونني من قوم لوط، وهذا سبب كاف لطردي من هذا البيت شر طردة. المسلمون ذكوريون ويعلنون ذلك على الملأ، أما نحن الإيطاليون، فنفضل ممارسة الذكورية في سرائرنا بالاعتماد على النفاق والتشدق بالمساواة بين الجنسين والدفاع عن حقوق المرأة ،والشواذ وغيرها من الأكاذيب. "(لخوص، 2022)إن هذا التصور الذي أتى به صاحب المهمة "عيسى"،يبين الفجوة العميقة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية، فعيسى هنا يرتكز على ثقافته الأصلية التي تتكئ على أن " كل تفرقة، أو عقاب على أساس الجندر تشكل جريمة ضد الإنسانية." (شغيدل، د.ت) ،فعيسى هنا ينظر بإعجاب للثقافة العربية التي سارت وفق الفطرة والإسلام في خصوصية كل جنس عن الآخر ،بينما الغرب لا يضع حواجزا أو تمميزات بين الجنسين.

فالجميع متساوي في كل شيء،وهنا تضع هذه الشخصية نفسها كذات نابعة و ذائبة في الثقافة الغربية في وجه المرآة،وتصف أن الذات الجمعية في هذا الفضاء تلعب لعبة المساواة، ولكن الذات الفردية الذكورية ترفضها سرّا ولا تجاهر بها،وهذا ما يدخل في خانة هيمنة المفاهيم التي صنعها الغرب وصدّرها للعالم كخطاب ثقافي تحرري مُهيمن .

اشتهر العرب بإكرام العابرين والمسافرين ،فكانوا يقومون بـ "إيقاد النار لهم كي يروها فيأتوا ضيوفا" (مُحَمَّد عبد القادر حسين، 2015) عندهم ،وقد تحدث عسى عن هذه الخصال أثناء مهمته:"من المعروف أنّ العرب مضيافون طيلة قرون عديدة، طوّروا مهارتهم في معاملة الضيوف.

بالتأكيد وجدوا ظروفا مناسبة بسبب اتساع الصحراء. ثم أليس من السهل إقامة خيمة وتفريش بساط للضيوف؟! أليس من اليسير الميسر إطعامهم بكوب من الحليب وحفنة من التمر ؟! ما دمنا لا نعيش في الصحراء بين الجمال والنخيل، فإن الضيافة في أيامنا مكلفة وعديمة القيمة أيضا في إيطاليا ممنوع أن تستضيف شخصا في بيتك إذا لم تعلم الشرطة بوجوده خلال مدة لا تتجاوز يومين." (لخوص، 2022). تدخل هذه الشخصية في خطاب لمكاشفة الذات وثقافتها وتعريتها، بمقابل التراث العربي، الذي يحمل في طياته حرارة الصحراء ودفء ناسها رغم ما في هذا القفر من اتساع وغموض مصير،ف"معلوم أن العربي إنسان تعلق ببداويته حد النخاع ،هذه الطبيعة التي اختزنت قيمة الإنسان في رحلة البحث عن الماء والكلأ" (تومي، 2023)،هذا المفقود الذي يعتبر كنزا يجود به العربي رغم ندرته،ولنا في قصة حاتم الطائي خير مثال.تركز الرواية على نسق بدوي عربي تحكمه القبيلة ونسق مديني يحكمه التمدن وحضور القوانين الصارمة،التي تنظم الجماعات.

فشخصية عيسى استسهلت كذلك الضيافة لدى العرب؛ نظرا لاعتبارات البساطة كنموذج للبداوة والاتساع الجغرافي،وهناك نستشف عكس ما ذهب إليه عيسى حول الصحراء البدوية،" أن الإبداع العربي لم يستقم إلا بحصول العمران" (تومي، 2023) الذي فتح المجال للعقل العربي أن يخرج من حالة الحل والترحال ويؤسس لفكر مديني قائم على التخطيط والتنظيم في كل شؤون الحياة.

تمر الرواية إلى سياق الرتابة الذي يلف الثقافة العربية وخاصة الغنائية منها"فالأغاني المسموعة بكثرة هي أغاني أم كلثوم. أنا شخصيا لا تعجبني لأنها تكرّر نفس المقطع مرّات عديدة. إن العرب يعشقون التكرار ولا يملون منه، ألهذا السبب يرضون بحكام يتشبثون بالسلطة مدى الحياة ويقبلون وعودهم المتكرّرة؟ الأطعمة الأكثر انتشارا هي من الطبخ المصري.... نحن نعيش في مستعمرة مصرية صغيرة على الأراضي الإيطالية..." (لخوص، 2022) ،تلعب شخصية "عيسى" دور المرايا المتعددة ،لتنطلق في نقد الثقافة العربية من الداخل وتقرؤها،وهنا ينقد عيسى الذات الوجدانية الغارق في عسل التكرار وهذا ضمن النسق البدوي الصحراوي الذي تتشابه فيه الأيام والأوقات وتتكرر ولا نحس بالفصول وتحولاتها كما هو في مدن الشمال،كما أن النص يطرق باب النسق السياسي الذي يجعل من العمل السياسي فعلا مكررا ومُكرسا ومعروفا مسبقا،لأنه ورغم مجيء الديمقراطية للثقافة الشرقية إلا أنها جاءت بصيغة التمليك والتوريث، إن المدينة(العمران والحضارة) ترفض السكون ولها إيقاعاتها الفائقة السرعة، بينما الصحراء بمحمولاتها التراثية ،التي تمثل عالم الشرق هي رديفة للرتابة والمستنسخ. إن وصف الصحراء بالرتابة والتكرار هو ارتكاز على مُعطى مناخي؛ولكن ،"ألم يخرج الدين الإسلامي الذي تعتنقه أغلبية المعمورة من عمق الصحراء ؟.

تقود "عيسى" هذه المهمة السرية إلى الغوص في تفاصيل الجالية العربية،فيتفوق الإنساني منه أحيانا على الأمني،ويتحول إلى منصت جيد لهموم الناس المهاجرين ،وهذا ما حدث مع المهاجر "مُحَمَّد" المغربي الذي كان ضحية للعنصرية وعدم تجديد إقامته،حيث يدور هذا الحوار بين مُحَمَّد وعيسى:"بوحده. أنا ما درت والو. هاذ الجنود أولاد الحرام حاربو مع فرنسا ماشي تحت راية المغرب، كان خصهم يتحاكمو على داكشي الي داروا».

"دفعتني كلمات مُحَمَّد إلى التفكير في المخيلة الإيطالية. لقد ارتبط أمر اغتصاب الإيطاليات بالجنود المغاربة خلال زحف جيش الحلفاء على روما ، رغم أنهم كانوا أقلية. وأطلق على هؤلاء المغتصبات نعت ماروكيناتي Marocchinate أي المُمغربات مما جذر الكراهية تجاه المغاربة خصوصا والعرب عموما" (لخوص، 2022)، يطرح المقطع جرحا تاريخيا وله امتدادات إثنية وثقافية،أثرت على علاقة العرب بإيطاليا،إذ أن هناك فعلا إجراميا قام به جنود مغاربة تحت لواء الجيش الفرنسي،فهم لا يمثلون بلدهم الأصلي ،إنهم تحت طائل المُهيْمِن الذي يأتمرون بأمره ،فالشرطيات التاريخية ونواميس الزمن عندما تقترن بالذاكرة الشعبية،ستسقط في فخ التعميم،لأنه على الأغلب خاصة الخاصة فقط هي ممن تقرأ التاريخ وتنقده وتُغربله بطريقة موضوعية ومُنصفة.

ينقد "عيسى" عنصرية الأنا الجمعية ويكشف تصنيفاتها العرقية من خلال حواره مع "إبراهيما" الزنجي الإفريقي الذي ينتمي لعالم الهامش الذي يمثل الجنوب،لتضرب لنا الرواية هذا الشاهد:""أسود وسخ بالخراء لقيط ابن العبيد».

ابن حرام عنصري».

يا أخي العنصرية في إيطاليا منتشرة بين الإيطاليين أنفسهم. أنا عشت في ميلانو ورأيت كيف يسيئون معاملة الإيطاليين الوافدين من الجنوب».لم يتجن إبراهيما على أحد، فالعنصرية متفشية في بلادنا. ما أكثر الإيطاليين من أهل الشمال الذين يكنون كرها واحتقارا لنا نحن أهل الجنوب" (لخوص، 2022)،يناقش هذا الجزء إشكالية التعالي العرقي حيث يتم تصنيف الإنسان بحسب الرقعة الجغرافية ،فإفريقيا تعتبر جنوبا متخلفا بالنسبة لأوربا التي تمثل جزء من الغرب المتعالي.. ولعل الخلفية الثقافية تكمن في أنه "قبل أن يستعبد الأوربيون الأفارقة بوقت طويل كانوا قد طوروا ثقافة مسيحية متسعة الآفاق . وثمة عنصر من عناصر الدين المسيحي، هو الرمزية المسيحية عن البياض والسواد ، كان خليقا بأن يشجع موقفا عنصريا تجاه السود . فقد اعتقد المسيحيون أن الخطيئة هي اسوداد الروح البيضاء" (رايلي، 1986)،إذا هناك جزء من هذا الميز،يستند على نسق ديني وتاريخي،يربط فكرة الشر بالسواد وسوء المآل.لا يكف مشرط عيسى عن فتح الجراح،إذ أنه لا يقصر فكرة عنصرية الإيطاليين ضد الأفارقة ،بل حتى بين الإيطاليين أنفسهم وفق فكرة (شمال-جنوب) وهذا يطرح سؤالا مهما:" هل الانسان يضيف للمكان ويترك أثرا فيه،أم أن المكان هو الذي يضيف قيمة للفرد؟.

4-نسق الدين والاسلاموفوبيا بين الآنا والآخر:

يعتبر الدين الإسلامي عمودا يحتكم له الناس، ويضبط سلوكيات الأفراد والجماعات،حيث ينظم أحوالهم الحياتية وشؤونهم المدنية ويجعلها تبدو أكثر اتزانا وتنظيما، ولعل الفجوة في كل هذا هو الفهم البشري القاصر لبعض تعاليم الدين أو تقديمه بطريقة خاطئة ومُنفّرة للآخر.

هذا ما جعل"عيسى" يخوض حربا على العرب المسلمين ،حتى من خلال اللغة :""وقفت عند عتبة محل الاتصالات الهاتفية وألقيت نظرة خاطفة على اللافتة المعلّقة المكتوب عليها : Little Cairo أي القاهرة . الصغيرة. أخذتُ نفسا طويلا ودخلت بخطى واثقة، مطلقاً **رصاصاتي الأولى، أقصد كلماتي الأولى بالعربية** في ذلك اليوم.

«السلام عليكم».

وعليكم السلام». رد علي شخص كنت قد رأيته في الصور الملتقطة له في مكة: حنفي وهو صاحب المحلّ، **فقد يكون هو قائد الخلية الإرهابية**" (لخوص، 2022)،إن "عيسى" في هذا يربط ربطا وظيفيا بين الإرهاب واللغة العربية من خلال تشبيه الحرف العربي بالرصاصة التي أصبحت لدى الآخر (عيسى)ترتبط بالعنف والإرهاب وهذا يجعلنا نتساءل،كيف قدّم المسلمون صورتهم الحضارية للآخر في الوقت الراهن؟.لأن ربط الإسلام والعربية بالعنف والإرهاب يطرح إشكالية التسويق البشري الجيد لتعاليم من خلال إنتاج مُسلم مُلمٍّ بالشروط الحضارية دون أن يفقد هويته اللغوية والدينية.

تطرح الرواية نموذجا إشكاليا غيّر خريطة العالم ممثلا في أحداث 11 سبتمبر حيث تقول على لسان "عيسى" :"شد انتباهي فيلم وثائقي حول قائد تفجيرات 11 سبتمبر محمّد عطا كانت وصيته الأخيرة دليلا قاطعا على جنونه: هل يعقل أن يطلب شخص على مشارف الموت ألا تحضر جنازته امرأة حامل؟! أذهلتني مشاهد الانتحاريين وهم شبان في عمر الزهور من أندونيسيا وباكستان والهند وأفغانستان والعراق ومصر والجزائر والمغرب، مستعدون أتم الاستعداد للتضحية القصوى من أجل الحصول على الجنّة. لماذا هم في عجلة من أمرهم؟ من أغراهم بأن في انتظارهم عذارى حور العين؟!" (لخوص، 2022)،إن الحوار القائم بين الشرق والغرب قائم على "التمركز العرقي في الغرب، كما طورته المركزية الغربية من خلال تركيب صورة مشوهة للآخر، أكثر مما يبنى على عناصر خاصة به. أن التركيز سينصب في التمركز العرقي على بذل جهد جبار من أجل اصطناع صورة للآخر مخالفة تماماً للمعيار الغربي الذي أسهمت ظروف كثيرة على اعتباره المعيار الصحيح، وكل ما لا يمتثل له، يُعد نموذجاً ساكناً متخلفاً وخارجاً عن «مسار» التاريخ "(ابراهيم، 1997)،ففكرة التعالي على الشرق وعدم الحوار معه ومحاولة قولبته وشيطنته وفق بروباغندا إعلامية منظمة وممنهجة،جعل ظاهر العنف الآتي من الشرق تستشري وتزيد حدتها.

يستمر "عيسى" في شحذ مخيلته عندما تعاطف مع طالبة لم تجد سريرا في الإقامة لتنام فيه،ليتخيل المشهد في حال تنازله لها عن سريره وهو الذي يسكن مع العرب لأجل مهمته الأمنية السرية:"يمكن أن نراهن على بعض العناوين التي ستتصدر صفحات الجرائد الأولى وبالخط العريض : 5 مهاجرين مسلمين يغتصبون طالبة إيطالية في ماركوني. لا، العنوان غير مناسب لأنه طويل جدا. لا بد من عنوان قصير يكون مؤثرا، مثلا: "مسلمون يغتصبون طالبة"، الخبر رائع فعلا لأنه حافل بالتفسيرات والافتراضات. مثلا كلمة «مسلمون» قد تعني جميع المسلمين" (لخوص، 2022)،إن هذا المقطع يحيلنا إلى الآلة الإعلامية وصناعة البروباغاندا الإعلامية من أجل تشويه صورة الإسلام في العالم،إذْ تستعمل الرواية "الكوميديا الإيطالية" الساخرة في السخرية من فلسفة الغرب في شيطنة المسلمين وتشويه صورتهم وجعلهم رعاعا ومغتصبين وربط ذلك بالدين الإسلامي.إن الغرب يريد بذلك التأسيس لمخيال غربي جديد يقوم على إلغاء الآخر وتعطيل مسار محاولته الالتحاق بركب الحضارة،إن عيسى هنا "رجل لا حدود لبراعته ودهائه رجل يمثل منطلقا من التخيل" (دوشارتر، 1991) الذي يجعل الوهم حقيقة قد تحدث إذا توفرت لها البيئة الإعلامية المناسبة.

تتعدد رؤى الشخصيات حول "الأنا" العربية فهذا الشيخ "جيوفاني" يناقش "صوفيا" الفتاة المصرية :"أتمنى أن أموت قبل أن تنضم رومانيا إلى الاتحاد الأوروبي» أو «سيغزونا الغجر الرومانيون كالجراد» أو «ماذا تنتظر الحكومة لإغلاق جميع المساجد وزج المصلين المسلمين الإرهابيين في السجون؟!» أو «إذا أراد المهاجرون المسلمون الاندماج في مجتمعنا، فعليهم أن يعتنقوا المسيحية!.. آه يا وطني ما أجملك وما أتعسك" (لخوص، 2022)،يعكس هذا النص الرهاب ضد كل من وما يحمل صفة الإسلام،و الذي أوصلته الصحافة للعامة و كذا عقدة نقاء العرق والأرض،فالتعالي الإيطالي على الوافد من جنوب الكرة الأرضية يعكسه هذا النموذج الذي يدعو إلى انصهار المسلمين في مجتمعه واعتناق المسيحية بدل الإسلام.

5-النسق الذكوري المهيمن و ومحاولة تطويع الأنثوي:

تعتبر الثقافة العربية ثقافة ذكورية بامتياز،إذ يعلو فيها شأن المذكر،الذي يتصف بكل الصفات المثالية،التي تجعله محور القبيلة، التي تبارك هذا التتويج وترسم له مسارات القيادة والولاء لأوامره، التي عادة لا يشترك فيها النسق الأنثوي بدعوى النقص وعدم الاكتمال العقلي.

في الرواية الكثير من النماذج التي تعالج مسألة هيمنة المذكر على المجتمع :"اسمي أي صفية. اختاره أبي دون أن يستشير أحدا ما أتعسه، كان ينتظر ذكرا وبحوزته اسم هو **سعد**. قبل ميلادي...سعد اسم محبوب جدا في مصر، وينسب إلى البطل القومي سعد زغلول.. لما حملتني أمي : في بطنها، كان أبي يفكر بهوس في الوريث الشرعي أي سعد الصغير ...أخبر الحاضرين بنبرة فيها الكثير من العزة والتحدي: هيكون اسم البنت على بركة الله **صفية** زي مرات زعيمنا سعد زغلول!" (لخوص، 2022) من خلال هذه الجزئية نستشف حضورا طاغيا للأب في فرض منطقه وسلطته على الجميع،حتى في تسمية المولود وتظهر "السلطة البطريركية في القيم والعادات التي تُفرض على الأنثى منذ بلوغها سن الرشد أو منذ ولادتها، وتظهر هذه السلطة في كل من " سلطة الأب، الزوج والمجتمع؛ أي الذكر بصفة عامة" (زيداني و قندوزي، 2023)،إذا فنسق الفحولة الذي يمثله الرجل هو من يصنع الحياة ويوجه مسارها بالنسبة لأسرته،ولكن الفكرة التي واجهتنا هي أن نسق القبيلة انتزع خصائص خصائص الضعف الإنساني من هذا الفحل ،فهو لا يبكي إن كان الموقف يتطلب هذا ؛لأن القبيلة تعتبر ذلك من خوارم المروءة والرجولة.إن اختيار اسم "صفية" للمولودة الجديدة ،تيمنا بزوجة البطل القومي سعد زغلول ،يشير إلى أن الذكر يواجه المجتمع القبلي الذي ينتقص من قدره في عدم إنجاب الذكور بتسمية صفية التي تحمل رائحة "سعد زغلول".إن هذا الفعل هو هروب من عقدة الخصاء التي يهرب منها لاوعي الإنسان بشكل عام.

إن سيطرة النسق الذكوري على الأنثوي ومحاولة تطويعه هو أشبه ب"حكم الروح للجسد أو سيطرة العقل على العاطفة" (شكري و بوبكر، 2002)،إذ أن "هناك تاريخا قائما كتبه وصنعه الرجل أو لعله صنعه لأنه هو من تولى كتابة مسيرة الكون وحوادث الزمان، فجاء هذا التاريخ رجلاً لأنه من إنشاء الرجل " (الغذامي، 2006).

تسرد صفية إشكالات الخطبة ومآلات فسخها على العروس لتقول: "ولن تقف عائلة الخطيب مكتوفة الأيدي، بل ستسعى بشتى الوسائل للانتقام مني كنشر الإشاعات ومنها أنني لست عذراء. وسيقع الفأس على الرأس. هذه حيلة جهنمية لا نجاة منها أبدا، قد تدنس شرف عائلتي وسمعتي إلى يوم يبعثون، وتحرم أخواتي وبنات أعمامي وأخوالي من استيفاء نصف دينهن، وستصدر عليهن حكما بالعنوسة المؤبدة. لو فسخت الخطوبة قبيل الزواج، لصرت قنبلة ذرية أكثر فتكا من قنبلة هيروشيما "(لخوص، 2022)،تصبح البكارة هاجسا مركزيا للفتاة المخطوبة،فأي مساس بها هو خدش في "شرف القبيلة" وسمعتها وفحولة رجالها الجسدية والمعنوية،حيث سيحرم جيل من الإناث من الزواج بسبب النسق الشفوي الذي يقوم على نقل الأخبار وتداولها في جلسات السمر ،فتغدو هذه القصص فاكهة المجالس وملحها.إن هذا يعكس شرخا في بنية المجتمع الذي يُعتبر سماعيا بطبعه ولا يُغربل الأخبار،حيث يمارس شعبوية في تلقي الأخبار وتداولها.إن المجتمع هنا يضغط على الأنثى ويعتبرها قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة؛ إذ أنه"

يتغاضى عن تجارب الرجل الجنسية قبل الزواج وبعده ونراه يلح على عفّة المرأة فيصبح الوفاء والتحفظ والحياء من الخصال الأنثوية لارتباطها بوظيفة الإنجاب" (قرامي، 2007).

تواصل "صفية" سرد هواجسها الأنثوية :"رحت اتفلسف في الزواج والطلاق. بالنسبة لفتاة مسلمة مصرية كأختي ليلى الزواج لن يكون مسك الختام، وإنما البداية فقط. الامتحانات لا تنتهي أبدا ينبغي الاستعداد لمواجهة تحديات أخرى، أهمها على الإطلاق هو تجنب الطلاق! إنّ المطلقة تحمل على عاتقها عبء الفشل مدى حياتها. إنها لا تعدم كبقيّة المحكوم عليهم بالإعدام مرة واحدة وكفى وإنما مرّات عديدة" (لخوص، 2022).إن الطلاق بالنسبة للأنثى العربية هو موت محتم ومتعدد الجرعات والمذاقات ،فهي تتعرض للتجريح والتخوين،لتصبح مشاعا تلوكه الألسن. إن المرأة المطلقة في المجتمع تتحول إلى ورم خبيث يثقل دينامية جسد القبيلة ويصيبها بالأعطاب السيكولوجية والقيمية،فتصبح في المخيال الاجتماعي الشعبوي مشروع امرأة "هَجول(هجّالة) وهي المرأة البغي"، (العلوي، 1983)وفي ذلك إثبات لما يفكر فيه نسبة معتبرة من المجتمع، عبر المخرجات اللسانية بأن كل مطلقة هي مشروع "بائعة هوى".

تطرق الرواية باب الأسئلة هذه المرة في علاقة تشابك النسق الأنثوي مع النسق الذكوري الذي يتكئ على نسق الديني،حيث أن الحوار الذي دار بين "صفية" وزوجها"سعيد" شاهد على ذلك:"... دا شرع ربنا والشرع بيقول أربعة، هو انتي نسيتي ولا إيه؟».

«عملتلك إيه بس ؟!».

الدنيا كدا يا حبيبتي. أنا راجل وأعمل كل اللي عايزه».

«دا ظلم».

«أنا ظالم !؟ ها ها ها. إيه الكلام دا. أنا بطبق القرآن يا حبيبتي».

بس القرآن بقى ما فيهوش نص صريح بخصوص تعدد الزوجات».

يا حبيبتي، أنا عايز أقتدي برسولنا صلى الله وسلم، فاهمة؟». مصيبة المرأة ليس مع القرآن أو السنة. صحيح أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولكن يحتاج دوما إلى التفسير. وهنا تكمن المشكلة إذ لا . يوجد تفسير نسوي واحد . معتمد. هذا المجال . حكر على الرجال فقط. هناك إقصاء كبير للنساء في العديد من المواقع الهامة" (لخوص، 2022)،تصطدم صفية مع زوجها الذي يشهر ذكورته،بأنه يستطيع فعل أي شيء إذ يؤيده المجتمع والنص الديني في قضية التعدد؛فيتحول هذا الحجاج سيف الحجاج يُرهب به المؤنث لأن طبيعة المرأة ترفض مشاركة زوجها في امرأة أخرى.تطرح الرواية قضية مستوى الحوار بين الزوجين في مثل هذه القضايا الحساسة،التي يجب أن لا تكون فوقية ،تخضع لسلطة لي الذراع،فكما يقال الخوف من الألم أفظع من الألم نفسه.فطرح هذه القضايا يجب أن يسوده الحوار الذي يبحث عن النقائص التي جعلت من الزوج يفكر في الزواج مرة ثانية.

يعالج هذا الجزء فكرة ضرورة إنشاء فتوى نسوية–أن تكون المفتي امرأ–،خاصة ما تعلق منها بأمور المرأة ،فهُنّ أدرى بطبيعتهن السيكولوجية والفزيولوجية.

6–معيارية الجمال ونسق اللون :

يعتبر اللون علامة بصرية تجلب القارئ للجمال والصورة المعبرة،ولعل الحوار الذي دار بين "صفية" وأختها "فاتن" يجعلنا نقف عند فكرة الحقيقة وما وراء الحقيقة فالصورة الحية ،ليست هي الفتوغرافية وليست المصورة بالفديو،حيث تقول الرواية في هذا السياق:

" بالضبط، **مارلين سمرا** زيك وزبي يا عبيطة. كانت الصورة "لمارلين مونرو" فعلا وهي لا تزال في سن المراهقة، أي قبل أن تصير ممثلة مشهورة. كانت تبدو جميلة، ولكن لم تكن خارقة الجمال **كمارلين صاحبة الشعر الذهبي** التي نعرفها ولا نزال نعشقها. للأسف الشديد، فاتن كانت على حق **مارلين شقراء مزيفة**. ما أقسى الحقيقة، وما أسوأ التعنّت على عدم قبولها... اكتشفت بعد سنوات قليلة أن أغلبية الشقراوات لسن أصيلات. كان الفرق بين مارلين السمراء ومارلين الشقراء واضحا للعيان" (لخوص، 2022)يشير هذا المقطع وفق المنطق الغربي إلى برمجة قبلية للذائقة،أي أن كل فتاة شقراء وبيضاء هي قمة في الجمال وهي نموذج له،وما عدا ذلك فهو خارج خارطة الجمال،فالخديعة التي تمارسها الصورة التي صنعها الإعلام الغربي حول شُقرة مارلين مونرو وآمنت بها المُخيِلة العالمية هي هيمنة لصناعة قيم تتوافق مع الرجل الأبيض الذي يهيمن على العالم باسم العولمة وتفوق الغربي على الشرقي.إن هذا التلاعب بالعقول والوعي الجمعي حول الجمال وقيمه وبث هذا في كل الوسائل الإعلامية هو من ثمرات العقل الرأسمالي المنتج،حيث تصبح المرأة سلعة يجب أن تتوفر على صفات تقنية محددة ؛حتى تحضى بالجودة المطلوبة وتدخل سوق العرض والطلب.

تواصل صفية الخوض في عقدة الشعر الأصفر وتتعمق في سرد مرجعياتها:"هوسي **بالشعر الأشقر** مسألة في غاية الجدية، ربما يجب البحث عن السبب في الطفولة كما يقول فرويد، ربما سحرتني الدمية باربي التي أهداها لي عمي سالم بعد سفره إلى لندن. كنتُ لا أستطيع النوم مأخذ إذا لم أحتضنها. الأكيد أنني كنت أحسد قريناتي الصغيرات الشقراوات الشعر هن الأملس كالحرير كان شعري طويلا أسود اللون وأجعد. وكنت أبكي من شدّة الألم كلّ صباح لما كانت أمي تمشط لي شعري" (لخوص، 2022) تعود بنا شخصية صفية إلى مضمرات هذا الهوس لتحكي لنا قصتها مع الدمية الشقراء "باربي" (وآخرون، 2017).لقد ارتبط الجمال لدى صفية بالألم أثناء تسريح الشعر،فقد ولّد لها عقدة بين اللونين الأسود والأصفر،فالأول ارتبط لديها بإحساسها بالدونية والثاني بالمثالية والكمال،كما أن الدمية هنا جاءت لتفرض نسقا جماليا لمعالم الجمال التي ترتبط دائما بالنحافة على عكس العرب قديما والذين يفضلون المرأة "العَبْهَرةُ:ممتلئة الجسم" (السيوطي، 2018)وهذا ما يؤكد نسبية الجمال لدى الشعوب.إن محاولة عولمة وتنميط الجمال لايمكن، ذلك أن الطباع البشرية والأذواق متعددة ومتنوعة.

–الخلاصة:

تعتبر رواية "القاهرة الصغيرة" نصا تتشابك وتصطدم فيه الأنساق الثقافية بحدّة ،حيث أن نسق القبيلة يتغوّل على نسق الأنوثة باسم النسق الديني عادة.فالرواية عالجت عديد القضايا الحرجة كعقدة الاسم والابن البكر والأبوية البطريركية،كما أنها تطرقت لإشكالية الآخر الذي يربط العربية والإسلام بالإرهاب.الرواية تطرقت كذلك للصدمة المعاكسة للآخر من الحضارة العربية الإسلامية ممثلة في شخصية "عيسى" الذي أتقن العربية واللهجة التونسية وولع بهما لما للشرق من سحر وغواية.الجمال وفلسفته كان حاضرا بين الأنا والآخر ،حيث طُرحت هذه القضية من قبل صفية التي ارتبطت بالنموذج الجمالي لباربي ومارلين مونروا في محاولة منها أن تكون مثلهما؛لتكتشف الخديعة بعد أن كبرت.

-الإحالات والمراجع:

- اليامين بن تومي. (2023). *تشريح العواضل البنيوية و التاريخية للعقل النقدي العربي-دراسة في الأنساق الثقافية العربية الكلية والجزئية-*. الجزائر: دار الألمعية للنشر والإشهار.ص315-317.

- آمال قرامي. (2007). *الاختلاف في الثقافة العربية-دراسة جندرية-*. لبنان: دار المدى الإسلامي،لبنان.ص258.

- بيرلوي دوشارتر. (1991). *الكوميديا الإيطالية*. (ممدوح علوان، و علي كنعان، المترجمون) سوريا: منشورات وزارة الثقافة.ص27

- جلال الدين السيوطي. (2018). *اليواقيت الثمينة في صفات السمينة*. تونس: الدار المتوسطية للنشر.49.

- ريتا فرج. (2010). *العنف في الإسلام المعاصر- معطى بنيوي أم نتاج تاريخي*. المغرب: المركز الثقافي العربي.ص113.

- شرين شكري، و أميمة بوبكر. (2002). *المرأة والجندر -إلغاء التمييزالثقافي والاجتماعي بين الجنسين*. سوريا: دار الفكر.ص30.

- عبد الله ابراهيم. (1997). *المركزية الغربية-إشكالية التكون والتمركز حول الذات*. المغرب: المركز الثقافي العربي.232.

- عبد الله مُحَمَّد الغذامي. (2006). *المرأة واللغة* (المجلد 3). المغرب: المركز الثقافي العربي.10.

- عمارة لخوص. (2022). *القاهرة الصغيرة*. الجزائر: منشورات الحبر.ص12إلى 162.

- عمر عبد الفتاح غنيم، و وآخرون. (2017). دراسة مقارنة بين الدمية ما تريوشكا الروسية والدمية باربى الأمريكية. *مجلة بحوث التربية النوعية*(46). ص 500. https://mbse.journals.ekb.eg/article_138639.html(زيارة 2024/10/20)

- كاقين رايلي. (1986). *الغرب والعالم* (الإصدار 97). (عبد الوهاب مُحَمَّد المسيري، و هدى عبد السميع حجازي، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.ص89.

- مُحَمَّد عبد القادر حسين.(2015)الضيافة ومظاهرها عند العرب قبل الاسلام. مجلة العلوم الإنسانية ،جامعة زاخو.ص،134 https://hjuoz.uoz.edu.krd/index.php/hum/article/download/183/133/311 (الزيارة 2024/10/21)

- مصطفى شغيدل. (د.ت). *الجندر ...سقوط الفطرة وإحياء الشيطنة.ص43*.

- هادي العلوي. (1983). *المعجم العربي الجديد*. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.ص994.

- وداد زيداني، و سمية قندوزي. (2023). تراجيديا العنف الأبوي وتمثلات السلطة البطريركية في السرد النسوي العربي المعاصر-مقاربة سوسيو ثقافية لنماذج روائية مختارة -. *مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية*(2)، ص 25. https://www.asjp.cerist.dz/en/article/234264 (زيارة 2024/10/22)